مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد ١٠، العدد ٣٩ (صيف ١٩٩٩)، ص ٢٠٥

غسان كنفاني: أسئلة وأجوبة*

فضل النقيب**

ماذا يعني غسان كنفاني لنا اليوم؟

اغتيل غسان على يد عملاء إسرائيليين في الثامن من تموز/يوليو ١٩٧٢ في أوج الثورة الفلسطينية، بعد عامين تقريباً من أحداث أيلول الأسود في عمّان، وقبل عام من حرب تشرين الأول/أكتوبر. وقد نظر العالم العربي إلى هذا الحدث باعتباره تعميداً بالدم لطليعة القيادة الفلسطينية. وصار لأعمال غسان الأدبية قراء كثيرون في جميع الأقطار العربية، وتُرجم عدد من كتبه إلى اللغات الأُخرى، وأصبحت شخصيات في رواياته وقصصه القصيرة تعبيرات رمزية عن مأساة الشعب الفلسطيني ونضاله.

والآن، بينما تجري عملية غدر الثورة الفلسطينية من الداخل والخارج، ويتقلص مشروع التحرير الوطني، على يد زعامة منظمة التحرير الفلسطينية، إلى وضع مشبوه لحكم ذاتي محدود يحظى بمباركة الإمبريالية الأميركية والحركة الصهيونية، ما هي أهمية غسان كنفاني؟ هل هو تعبير عن ثقافة ثورية لم تعد موجودة؟ أم أنه يعني شيئاً آخر له الأهمية نفسها التي كانت له وقت موته؟ أم هو الأمران معاً؟

* * *

لقد كنت صديقاً لغسان وأعرفه معرفة جيدة، وشعرت بعد اغتياله بدافع قوي إلى الكتابة عن حياته. لم أكن معنياً، في المقام الأول، بالكتابة عن أعماله الأدبية، وإنما كنت مدفوعاً برغبة شديدة إلى تأكيد حقيقة مهمة تتعلق به، وهي أنه كان قبل كل شيء فناناً. لم يكن التزامه الأساسي سياسياً أو أيديولوجياً، وإنما كان فنياً. ومع هذا قاده هذا الالتزام الفني إلى مركز النضال الثوروي. وهكذا، لم يكن غسان كبقية الفنانين، ولا كبقية الثوريين. فقد كان مختلفاً عنهم، وهذا ما كان يدفعني إلى الكتابة عنه.

ثم حدث ما زاد في رغبتي في الكتابة... فقبل أن يمضي عام على اغتيال غسان، في نيسان/أبريل ١٩٧٣، اغتال عملاء إسرائيليون في باريس باسل الكبيسي الذي كنت أيضاً صديقاً له وأعرفه حق المعرفة. صُدمت، لكن لم أفاجأ. إذ بعد اغتيال غسان سيطر عليّ هاجس خفي بأن باسلاً سيكون الهدف التالي، وأخبرته بذلك في رسالة

* كلمة أُلقيت بالإنكليزية في حفل أقيم في منتدى بريخت، في نيويورك، بتاريخ ٨ أيار/مايو ١٩٩٩، إحياء لذكرى غسان كنفاني. وقد ترجم النص إلى العربية أحمد خليفة.

** أستاذ الاقتصاد في جامعة واترلو – كندا.

بعثت بها إليه. فمع أن الاثنين كانا مختلفين في شخصيتيهما، إلاّ إنني كنت أشعر بأنهما يشتركان في صفة مهمة جداً وخطرة. فقد كان باسل قائداً بارزاً في حركة القوميين العرب في العراق، وانضم إلى نشاطات المقاومة الفلسطينية بعد حرب ١٩٦٧، لكنه كان مختلفاً عن المثقفين والثوريين العرب الآخرين. كان يحمل شهادة دكتوراه في العلوم السياسية، ومع ذلك لم يكن راغباً في ممارسة مهنة أكاديمية. وكانت أطروحته للدكتوراه عن الحركة السياسية التي كان ينتمي إليها، حركة القوميين العرب، إلاّ إنه لم يكن معنياً بالنظريات السياسية أو بالتفصيلات الأيديولوجية، إذ كان اهتمامه الجارف منصباً على التنظيم السياسي. فإحياء الأمة العربية وتوحيدها وتحريرها من السيطرة الأجنبية، كل هذا لم يكن في رأيه مشروعاً بحاجة إلى النظريات السياسية، وإنما كان أمراً بديهياً بحاجة ماسة إلى تنظيم سياسي جريء يعمل لتحقيقه. وفي عالمه كان كل شيء يقاس بالنجاحات، أو بالإخفاقات، المتأتية عن سعيه الدؤوب للمشاركة في بناء ذلك التنظيم. لم يكن فناناً، بيد أن التزامه النضال كان قوياً وعميقاً وتشع منه تانك الحيوية والحدة اللتان هما من طبع الفنانين. كان ثورياً يستحث نفسه على العمل بأقصى طاقته في كل يوم، تماماً كالفنان الذي يكرس كل حياته لعمله. وخطر ببالي أنه على الرغم من أن باسل وغسان كانا قادمين من مكانين مختلفين، ومن خلفيتين مختلفتين، فإنه كان لا بد من أن يلقيا المصير نفسه، وذلك لأن لهما صفة مشتركة هي أن أهم ما في حياة الواحد منهما كان خارجاً عن إرادته بصورة كاملة. فغسان لا يستطيع أن يعيش من دون أن يكتب، وباسل لا يستطيع أن يعيش من دون أن يكون منهمكاً في التنظيم السياسي.

كانت الكتابة بالنسبة إلى غسان كما كان التنظيم السياسي بالنسبة إلى باسل: نظرة إلى الحياة، وموقفاً من العالم، وعاطفة جامحة، وفي نهاية المطاف وطناً؛ ولقد استُهدف هذا الوطن في البداية.

لماذا؟ لم أكن مهتماً بمعرفة لماذا اختارهما العدو أولاً، قبل قادة آخرين كانوا يمارسون سلطة سياسية أو عسكرية أكبر، لأني كنت أعرف الجواب، إذ كان يدور حول الخطر الذي يمثله الثوروي الأصيل في مقابل إمكان الوصول إلى اتفاق مع السياسي البراغماتي. وإنما اهتممت بمعرفة لماذا اختار غسان وباسل أن يضعا أنفسهما حيث كانا، في الموقع الذي كان لا بد من أن يُستهدف أولاً.

في ذلك الوقت، لم يكن عندي إجابة واضحة عن ذلك السؤال... كل ما كان لديّ هو شعور وحدس نابعان من معرفتي بالرجلين، ولم يكن عندي فكرة واضحة لها دلالة عامة... لذا ألّفت كتاباً صغيراً عبّرت فيه عن مشاعري تجاه الصديقين، وعن الأثر الدائم الذي تركاه في نفسي. وكي أؤكد أن الكتاب لا ينطوي على أكثر من شعور شخصي

اخترت له عنوان: "باسل وغسان: انطباعات شخصية".[١]

لقد انتهت تلك المرحلة من الكفاح الفلسطيني، التي مثلها غسان كنفاني، مع خروج منظمة التحرير من بيروت في أواسط الثمانينات، وبدأت المرحلة التالية مع اغتيال ناجي العلي في لندن في تموز/يوليو ١٩٨٧.

كان ناجي رساماً كاريكاتورياً فلسطينياً غير منتم إلى أي جماعة سياسية. ومع ذلك، أدت رسوماته دور المناشير السياسية الحادة، والتي ينتظرها جمهور كبير في العالم العربي يومياً. وأصبحت شخصية **حنظلة** – طفل مخيمات اللاجئين الذي يظهر في كل رسوماته مرعوباً من القصف الجوي اليومي للطيران الإسرائيلي، ومذهولاً من فساد الحكومات العربية وقيادة منظمة التحرير – جزءاً من الوعي الجماعي الفلسطيني.

وكان السؤال الذي أثاره اغتيال ناجي العلي مختلفاً اختلافاً واضحاً عن السؤال الذي أثاره اغتيال غسان. لم يعد السؤال **لماذا** يُستهدف الفنانون، وإنما أصبح **مَنْ** هو الذي يستهدفهم؟ فلقد حامت الشبهات حول عناصر من منظمة التحرير وعناصر من الموساد الإسرائيلي، وشاع ذلك على نطاق واسع بشكل ساهم في تقليص صدقية قيادة المنظمة. وفي أي حال، طرح اغتيال الرجلين سؤالاً جوهرياً صاغته باربرا هارلو بقولها: ما هي مهمة الفنان السياسي/السياسي الفنان؟[٢] ولماذا تقود إلى قتلهما؟

أعتقد أننا إذا أردنا التوصل إلى جواب صحيح عن هذا السؤال يجب أن نفهم، أولاً، المرحلة الحالية من المأساة الفلسطينية؛ المرحلة التي بدأت مع اتفاق أوسلو بين منظمة التحرير الفلسطينية وإسرائيل سنة ١٩٩٣.

لم يتم تدشين هذه المرحلة بالاغتيال كما حدث في المرحلتين السابقتين، وإنما بانفجار فكري عبّر عنه ظهور إدوارد سعيد قوةً رئيسية معارضة لاستسلام زعامة منظمة التحرير الفلسطينية أمام المحور الأميركي – الصهيوني.

لن ندخل هنا في تفصيلات الموقف السياسي لإدوارد سعيد تجاه "عملية السلام" وسعيه المثابر لإيجاد البديل. فما يعنينا الآن هو موقفه الخلقي والمعنوي. ما الذي يدفعه إلى المعارضة بكل هذه الحدة والحيوية؟ ما الذي يقوده إلى أن يكون في طليعة الصفوف على الرغم من حالته الصحية الصعبة؟

من الواضح أن الإجابة عن هذا السؤال ستساهم، إلى حد بعيد، في الإجابة عن الأسئلة التي طرحناها بالنسبة إلى غسان وباسل وناجي.

---

(١) غيّر الناشر العنوان إلى: "هكذا تنتهي القصص، هكذا تبدأ: انطباعات شخصية عن حياة الشهيدين غسان كنفاني وباسل الكبيسي" (بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، ١٩٨٣).

(٢) Barbara Harlow, *After Lives: Legacies of Revolutionary Writing* (London: Verso, 1996), p. 15.

لا يستطيع إدوارد سعيد أن يقبل باتفاق أوسلو لأنه يناقض، بصورة مطلقة، كل ما عمل له في حياته. فقبوله به يعني، بكل بساطة، تنكره لكل ما كتبه في الماضي، إذ إن محور تلك الكتابات يدور دوماً حول قدرة القوي والمتجبر على تشويه التاريخ، واختلاق روايات تدعي "الحقيقة" وقائمة أساساً على لوم الضحية. ليس من الضروري أن يقرأ المرء "الاستشراق" (*Orientation*) أو "الإمبريالية والثقافة" (*Imperialism and Culture*)، من كتب إدوارد سعيد، كي يدرك استحالة قبوله بأوسلو. فمن الممكن أن يصل إلى النتيجة نفسها لو قرأ كتابه عن "الموسيقى" (*Variation in Music*).

إن الانتهاك الذي مثله اتفاق أوسلو لا ينبع من حقيقة أنه يتطلب من الفلسطينيين التنازل عن حقوقهم المشروعة، وإنما من حقيقة أنه يتوقع من الفلسطينيين أن يشجبوا تاريخهم وأن يعتمدوا بدلاً منه الرواية الصهيونية عن التاريخ. فلم يكن في الإمكان توقيع اتفاق أوسلو إلاّ بعد أن تخلت قيادة منظمة التحرير عن مبادئها وقبلت أن تتعامل مع الماضي الفلسطيني، والحاضر الفلسطيني، والمستقبل الفلسطيني، كأنها سلع يمكن التفاوض في شأنها من منطق براغماتي.

إن حدث أوسلو ما هو إلاّ مثال توضيحي صارخ لكل ما أمضى إدوارد سعيد حياته المهنية في تحليله وتوثيقه: التحليل الثقافي لتشويه الحقيقة. وهذا ما يفسر غضبه الشديد، فلقد أزعج الاتفاق سلام وجدانه الداخلي، وانتهك الحقيقة التي يعيش بها. لذ فهو يعارض الاتفاق دفاعاً عن النفس.

الآن نستطيع جميعاً أن نفهم ذلك. إننا نفهم غضب إدوارد سعيد ومعاناته لأننا نشعر بوطأة العيش والتنفس في ظل هيمنة **الكذب**. لكن اتفاق أوسلو لم يبرز فجأة في حياتنا، فوراءه تاريخ طويل ينطوي على تحضيرات، وتدريبات أولية كثيرة، وعدد من البروفات السابقة للعرض. لقد كان دائماً "خلف المنعطف". وهذا الشعور بالاختناق الذي نحسه الآن هو ما أحسه الفنانون القليلون منذ البداية. إن فناني المقاومة ومفكريها يختلفون عن البقية في أنهم يستطيعون استشعار الخطر في وقت أبكر، وقبل أن يشعر به الناس الآخرون. إن هذا الانتهاك لحياتنا الذي نعيشه اليوم هو ما أحس به غسان وباسل وناجي قبل فترة طويلة. وقد قُتلوا بينما كانوا يقاومون الاختناق. ففي عالم **الكذب** لم يكن في وسع غسان أن يكتب، ولا في وسع باسل أن ينظّم، ولا في وسع ناجي أن يرسم، ولا في وسع إدوارد سعيد أن يستمر في أن يكون إدوارد سعيد. وفي الواقع، لم يكن في إمكان غسان وباسل وناجي إلاّ أن يكونوا في المواقع الخطرة، حيث استُهدفوا أولاً. فالثورويون الحقيقيون لا يملكون خيارات.

إن الغضب الذي أشعله اتفاق أوسلو في أعماق إدوارد سعيد لم يكن مختلفاً عن الغضب الذي حرك غسان كنفاني وناجي العلي، ونجمت عنه أعمالهما الثورية. ففي

كل مقال كتبه إدوارد سعيد منذ أوسلو، نجد الشعور بعدم التصديق وبالخديعة نفسه الذي نجده في القصص الأولى لغسان كنفاني التي كان يحارب فيها **الكذبة** التي تكرست سنة ١٩٤٨، والذي نجده في الرسوم الكثيرة لناجي العلي التي تعبّر عن شعور **حنظلة** تجاه الانعطاف الخطر الذي سارت فيه قيادة منظمة التحرير في أواسط الثمانينات. كما أن المعركة التي يخوضها إدوارد سعيد الآن ضد تزييف التاريخ الفلسطيني هي المعركة نفسها التي خاضها ناجي العلي في أواسط الثمانينات ضد التضليل الذي تعرض له الشعب الفلسطيني، وهي المعركة نفسها التي خاضها غسان كنفاني منذ أواسط الخمسينات.

إن كوننا قادرين على تأريخ النضال الفلسطيني، وعلى رسم خريطة المشهد الفلسطيني بعد سنة ١٩٤٨، من خلال أعمال غسان وناجي وإدوارد سعيد، ليس صدفة. فمنذ البداية كانت المأساة الفلسطينية، وما زالت، صراعاً بين عالم **الكذب** وعالم **الحقيقة**. وكان العالم الأول متفوقاً دائماً نتيجة دعم القوى العظمى وفساد قادة عرب وفلسطينيين. وفي مثل هذا الصراع يُستهدف الفنانون والمثقفون الأصيلون أولاً. فتكوينهم الذهني والنفسي لا يقبل المساومة، ومبادئهم أرسخ من أن يجرفها الانحراف. إنهم يعيشون حياتهم بعمق وكثافة على نحو يصبحون معه لا رمزاً للحقيقة فحسب، بل أيضاً جزءاً منها. إنهم ليسوا جنوداً يحمون وطناً؛ إنهم الوطن.

هنا تكمن أهمية غسان كنفاني اليوم. إقرأ وصف إدوارد سعيد للاحتفال بتوقيع اتفاق أوسلو في البيت الأبيض، في ١٣ أيلول/سبتمبر ١٩٩٣، وستجد نفسك فوراً مع أبي الخيزران[٣] في مكب من مكبات النفايات في الكويت، شاهداً على دفن الفلسطينيين الثلاثة في الفصل الأخير من رواية غسان "رجال في الشمس". إن عظمة غسان كنفاني تكمن في قدرته على الحدس المبكر، الذي يتوقع النكبات القومية الكبيرة من خلال رصده عيوب الأفراد اليومية في الحياة العادية.

* * *

مع ذلك، يثير إدراك أهمية حياة وأعمال غسان كنفاني لنا اليوم جملة من الأسئلة الجديدة.

غسان وناجي وإدوارد ينتمون إلى الجيل نفسه، ولو كان غسان وناجي لا يزالان في قيد الحياة لكانا اليوم في عمر إدوارد سعيد تقريباً. ما هو شأن الجيل الذي أتى بعدهم؟ وما هو شأن المثقفين الفلسطينيين الذين تكوّنوا في أواخر الستينات وفي السبعينات، لا في الخمسينات وأوائل الستينات؟ من دون شك، لدينا حقاً جيل من الكتّاب والشعراء الشبان، لكننا لا نجد أي مثقف فلسطيني شاب يعيش في مقدم

(٣) أبو الخيزران هو سائق الصهريج الذي مات داخله ثلاثة فلسطينيون اختناقاً في رواية غسان: "رجال في الشمس".

الصفوف بالطريقة نفسها التي اعتاد غسان وناجي العيش بها، وبالطريقة نفسها التي يعيش إدوارد سعيد حياته بها اليوم. إننا لا نقرأ كلمات لكتّاب شبان تهز كياننا، وتثير كوامن مشاعرنا، وتغيّرنا؛ كلمات تستولي على قلوبنا وذاكرتنا وروحنا، لأنها تعبّر عما شعرنا به دائماً ولم نستطع التعبير عنه. لا نلاحظ كتّاباً شباناً تتناقل الأخبار أسماءهم. وأظن أن هذه الملاحظة كانت متضمنة في عبارة لشفيق الحوت[٤] عندما سألني ذات مرة بطريقته الحادة المعروفة: ألا تعتقد أن من الغريب ومن اللافت جداً للنظر أن الثورة الفلسطينية لم تنتج كاتبها أو شاعرها؟ واستطرد معدداً أسماء غسان كنفاني ومحمود درويش وإدوارد سعيد وغيرهم من الكتّاب والشعراء اللامعين الذين تكوّنوا جميعاً قبل مجيء الثورة في أواخر الستينات.

وفي هذا الصدد، فإن مقال بلال الحسن الذي كتبه في الذكرى الخامسة والعشرين لاغتيال غسان كنفاني مثير جداً للاهتمام.[٥] ففي أكثر فترات حياة غسان خصوبة (١٩٥٤ – ١٩٦٨) لم يكن مَن هو أقرب إلى غسان من بلال. إذ كانا في تلك الفترة عضوين في التنظيم السياسي نفسه (حركة القوميين العرب، ثم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين)، وعملا في الجريدة نفسها التابعة للتنظيم في دمشق، وفي جرائد أُخرى في الكويت وبيروت، وعاشا معاً في الشقة نفسها أحياناً، وكان بينهما دائماً نقاشات في السياسة والأدب وكل الأمور الأُخرى. وفي نص مؤثر وصاف، يسرد بلال حكايات من الفترة التي كان خلالها غسان يبحث عن صوته الخاص، يتعلم مهنة الكتابة، لا من الكتب فقط بل أيضاً من التجريب في الرسم، وفي حفر الخشب، وفي ابتداع أشكال من الصلصال، ومن الملاحظات اليومية واللقاءات وتبادل الأحاديث مع الآخرين: مع المشرف على البناية، ومع البائع في الدكان، ومع كل من يقابله في مكان العمل أو في المقاهي أو في النوادي الليلية. وطبعاً، كانت فترة التدرب هذه تجري في إطار بيئة معينة. وقوة مقال بلال تكمن في تصويره هذه البيئة، وفي إضاءة التفاعل بين الصراعات داخل حياة غسان الشخصية وبين الحالة الفلسطينية، وكيف عزز كل منهما الآخر ووسع مداه، بشكل مكّن غسان من بلورة هدفه بأسلوب فني.

ونعرف من ذكريات بلال أن بدايات معظم قصص غسان كانت حدثاً ما، أو لقاء ما، في حياته اليومية. يسمع غسان عن "حدث" من صديق، أو من غريب، أو من خلال وسائط الإعلام، فيضطرب أو يتألم أو تعاوده ذكرياته عن فلسطين، فيختل توازن حياته، ولا يستطيع استعادة ذلك التوازن ولا استرداد فلسطين إلاّ حين يكتب عن ذلك الحدث ويشحنه بالمعنى والأهمية والدلالة. وذات مرة، بينما كان منهمكاً في كتابة

(٤) أحد مؤسسي منظمة التحرير الفلسطينية ورئيس مكتبها في بيروت بين سنة ١٩٦٥ وسنة ١٩٩٣، عندما استقال احتجاجاً على اتفاق أوسلو.

(٥) بلال الحسن، "غسان كنفاني إنساناً وفناناً"، "السفير" (بيروت)، ١٩٩٧/٧/١١.

رواية طويلة عن حياة الفلسطينيين في الكويت، سمع خبراً عن ثلاثة فلسطينيين عُثر عليهم موتى في الصحراء بين الكويت والعراق. وكان موتهم ناجماً عن اختناقهم في صهريج كان من المفروض أن يهربهم عبر الحدود إلى الكويت. فتوقف غسان فوراً عن كتابة الرواية الطويلة وراح يكتب كي يمنح موت الفلسطينيين الثلاثة الشرعية التي تعود بهم إلى فلسطين. ولقد قادت تلك الكتابة إلى "رجال في الشمس". ولم يعد غسان قط إلى الرواية التي كان عاكفاً على كتابتها؛ فقد غيّرته "رجال في الشمس"، وغيّرت بعده جيلاً من القراء ولا تزال تفعل ذلك.

وهكذا، لم يكن غسان في الحقيقة يكتب عن فلسطين كموضوع، وإنما كان بالأحرى يكتشف فلسطين من خلال أحداث حياته اليومية. كما أنه لم يكن يكتب من أجل تمجيد التجربة الفلسطينية، وإنما على العكس كان يكتب للكشف عن تناقضات تلك التجربة الصعبة. وقد كان قادراً على تأدية هذه المهمة الثورية لأنه عاش فعلاً التناقض والصراع اليومي في حياته الخاصة بشجاعة وصدق وتصميم. عاش في ظل الوحشة والعذاب، مع الجمال والحب، وكتب... وكتب... إلى أن ابتدع أسلوباً عبّر عن تجربته، ذلك الأسلوب المتوهج الذي يعطيك صدقية الحقائق، وصدمة الخبر، وحرية الحلم، وأعماق فلسطين.

هذا التداخل بين الشخصي والوطني، بين الخاص والعام، هو ما منح أدبه قيمته الخالدة، وهو ما يفتقر إليه الجيل التالي من المثقفين والكتّاب الفلسطينيين.

لنتوقف قليلاً ونتأمل كيف كان غسان يعمل. لقد عمل خلال حياته في ست صحف، وكان رئيساً للتحرير في ثلاث منها. وبلال، الذي عمل معه في أكثر من واحدة من هذه الصحف، يعرض بالتفصيل رتابة عمل غسان اليومي. عشر ساعات، أو أكثر، كان غسان يمضيها في كتابة المقالات والتعليقات والأخبار. وبعد منتصف الليل كان يرسل الجريدة للطباعة، وبدلاً من أن يذهب إلى المنزل كان يجلس لممارسة الكتابة **الحقيقية**، صوغ القصص، وفي مخيلته المادة الخام التي تراكمت خلال النهار. وكان يبحث فيها عما وراء الفوضى والاضطراب، ويحاول أن يكتشف العلاقة بين ما مضى وما سيأتي. وهذا التطلع الدؤوب والمتواصل إلى الاكتشاف هو ما مكّنه من إنجاز ما سعى لإنجازه. لقد عاش ٣٦ عاماً فقط، لكنه خلف وراءه مجلد روايات، ومجلد قصص قصيرة، ومجلد دراسات سياسية ومقالات نقدية أدبية. كل هذا بالإضافة إلى عمله بوقت كامل في الصحافة، وإلى نشاطاته السياسية كعضو في المكتب السياسي للجبهة الشعبية، مع التنويه بأنه قبل أن يبلغ الثلاثين كانت اثنتان من رواياته ضمن قائمة الكتب المقررة في الكليات الأدبية في الجامعات العربية الرئيسية. كل ذلك في عمر لم يزد على ٣٦ عاماً.

إن بلال محق تماماً في القول إن من شأن دراسة حياة غسان أن تساعدنا في

التوصل إلى فهم أعمق لرواياته وقصصه ومقالاته، ومن شأنها أيضاً أن تساعد في فهم الفوارق المهمة بين جيل المثقفين الذي ينتمي إليه وبين مثقفي الأجيال الآتية بعده. ففي الأجيال الأخيرة لا نجد حس الاكتشاف اليومي، ولا ذاك التفاعل الدينامي بين الخاص والعام في حياتها. وإنما نرى شظايا وفوضى وصمتاً. إن المثقفين الشبان اليوم يعيشون حياة مزدوجة: "خاصة" و"وطنية"، ومعظمهم يتحدث بلغتين: واحدة خاصة وأُخرى عامة، ولم تعد المشاعر والرغبات الشخصية مندمجة في التطلعات الوطنية.

لكن، ألا يعكس هذا الانفصام فارقاً نوعياً أعمق بين فترتين؟ في زمن غسان كان هناك جو فضول ورغبة في الاكتشاف من خلال الحوار والنقاش. وكان هناك توق إلى التغيير من خلال التفكير الحر والأفعال الحرة. فما الذي قتل الفضول وحب الاكتشاف في حياتنا؟ وما الذي قتل الرغبة في التغيير والإيمان بإمكان التغيير؟ نحن بحاجة إلى مناقشة هذه المسائل، ولا فائدة في الاكتفاء باتهام الدكتاتوريات والطغاة. فالمسؤولية الأولى تقع، في نهاية المطاف، على عاتق المثقفين. ونحن بحاجة إلى مناقشة هذه المسائل، لا بصورة مجردة، لكن من خلال حالات محددة. نحن بحاجة إلى أن نتساءل: ما الذي جعل غسان قادراً على القيام بكل ما قام به؟ وما الذي يمنع اليوم أشخاصاً لديهم الموهبة نفسها والشجاعة نفسها من أن يرفعوا أصواتهم؟

وهكذا نرى أن غسان ما زال يطرح أسئلة متجددة في حياتنا، وما زال يقوم بمهمة الفنان التي هي، كما قال جورج لوكاش: "أن يطرح الأسئلة، وأن يثير المشكلات بمضمون رجال جدد وأقدار جديدة..."(٦)

* * *

هنا يزوّدنا غسان نفسه أيضاً بالأجوبة، واسمحوا لي في الختام بأن أحدثكم عن هذه الأجوبة.

في أواخر شباط/فبراير ١٩٩٦، كلفني القيّمون على برنامج الأمم المتحدة للتنمية (UNDP) القيام بدراسة نظام الضرائب في الضفة الغربية وقطاع غزة. أمضيت شهراً ونصف شهر في فندق صغير اسمه ألكازار، ويقع في وادي الجوز بالقرب من القدس، بين الشيخ جراح وجبل الزيتون. وكان من حسن حظي أن نزل فيه أيضاً، في الأسبوع الثاني من إقامتي به، خمسة عمال عرب من الجليل... كانوا من عمال البناء الذين ليس لديهم عمل دائم في قريتهم، ويتنقلون من مكان إلى آخر سعياً وراء العمل. ولقد جاؤوا إلى القدس للعمل ثلاثة أيام في موقع بناء إسرائيلي. كنا نجلس معاً في الأمسيات بعد

(٦) George Lukace, *Marxism and Human Liberation* (New York: Delta Publication Co., 1973), p. 180.

العشاء ونتبادل الحديث عن حياة العرب في إسرائيل. في صبيحة يوم مغادرتهم، وبعد تناول وجبة الصباح معاً، رافقتهم إلى الخارج مودّعاً. وبينما كان أحدهم يتجه إلى الباص، وقعت حقيبته من يده فلاحظت وجود كتاب داخلها. سألته على الفور، وبلهجة ذات معنى: "إذاً، أنت تقرأ كتباً؟!" فنظر إليّ، ثم رفع الكتاب ليريني صورة غسان كنفاني على الغلاف، وقال: "أنا لا أقرأ أي كتاب، أنا أقرأ هذا. غسان كنفاني مختلف." وكان سؤالي وجوابه يشيران إلى نقاش حاد جرى في الليلة السابقة، هاجم خلاله المثقفين والأكاديميين لتمضيتهم الوقت كله في قراءة الكتب التي تشوش أفكارهم وتبقيهم سلبيين.

بعد بضعة أيام، شاركت في جلسة عمل ضمت عدداً من أساتذة الاقتصاد في معهد أبحاث السياسات الاقتصادية الفلسطيني (ماس). وفي أثناء تناول الغداء سألني أحدهم إن كنت الشخص نفسه الذي كتب عن غسان كنفاني. وعندما أجبته بالإيجاب، أصر على أن يعرّفني إلى زوجته التي قال إنها تحتفظ بكتب غسان قرب سريرها وتقرأها باستمرار. وكانت زوجته أيضاً أستاذة جامعية في أواخر الثلاثينات من عمرها. وقد شرحت لي، عندما التقينا، أنها تعودت قراءة غسان حين كانت طالبة جامعية في الولايات المتحدة كوسيلة للتعامل مع الشعور بالغربة، وأضافت: "أمّا الآن، فأنا بحاجة إلى غسان كي أحارب الإحساس بأنني سجينة خلال أيام وليالي الإغلاق."(٧) ثم أشاحت بوجهها قليلاً، وواصلت الحديث وفي عينيها نظرة حنين: "الفترة الوحيدة التي لم أقرأ غسان فيها كانت السنتين الأوليين من الانتفاضة. في تلك الأيام، كل أشخاص غسان كانوا معنا. وفي كل مرة كنت أتحدث فيها مع امرأة فلسطينية كنت أخالني أتحدث مع أم سعد.(٨) وعندما كنت أراقب الأطفال يرشقون الجنود الإسرائيليين بالحجارة، كنت أحس أنني مع أطفال غسان. هل تتذكر الإخوة السبعة في قصة غسان 'الطفل يذهب إلى المخيم؟ وحتى عندما كنا نهرّب أشياء إلى القرى المحاصرة، كان أبو الخيزران دائماً هناك، مستعداً وراغباً في أن يمد لنا يد العون ليكفر عن خطئه التاريخي."

هل فوجئتُ بهذين اللقاءين؟ هل فوجئتُ بحقيقة أن غسان كنفاني لا يزال، بعد ربع قرن من موته، أفضل رفيق للفلسطينيين من مختلف المشارب في رحلتهم التي لا تنتهي؟

كلاّ لم أفاجأ. فلقد تمت مفاجأتي قبل أسبوعين من ذلك. إذ لم تكن زيارتي هذه للقدس، التي أقمت خلالها بفندق ألكازار، الزيارة الأولى، وإنما كانت الثالثة. وفي كل

(٧) الحياة تحت الاحتلال الإسرائيلي يمكن أن تكون **إغلاقاً وإغلاقاً كلياً**. في ظل الأول، يمنع الفلسطينيون من مغادرة الضفة الغربية وقطاع غزة؛ وفي ظل الثاني، يمنع الفلسطينيون من التحرك حتى داخل المنطقتين.

(٨) اسم بطلة رواية "أم سعد" المشهورة لغسان كنفاني.

مرة كنت أمر بالتجربة نفسها. منذ لحظة صعودي إلى الطائرة في أوروبا، كنت أتحول إلى الفلسطيني العائد إلى فلسطين بعد فراق خمسة وأربعين عاماً. وكنت على الفور أرتد إلى سنة ١٩٤٨، عندما كنت طفلاً في صفد. ولا أستطيع أن أقول في وصف مشاعري، خلال تلك الرحلات الجوية، سوى إنني كنت أشعر بأنني عارٍ من كل الألوان والظلال، تحت رحمة قطبي الضعف الإنساني: الإعجاز والعبث. وفي كل رحلة، وما أن تطأ قدماي ردهة فندق الدرجة الأولى في القدس، حتى يتوقف التأرجح بين القطبين، إذ إن كل شيء يتسم بالعبث. الفندق ملآن برجال الأعمال، وبممثلي البنك الدولي وصندوق النقد الدولي ومؤسسات الاتحاد الأوروبي والمنظمات الدولية الأُخرى. وكنت أستمع إلى حديثهم عن **العولمة**، فأشعر بأنني في بلد غريب. خارج الفندق، كنت أتنقل بالسيارة من مكان إلى آخر، لمناقشة سياسات وأرقام وجداول. هل أنا حقاً في فلسطين؟ لم يكن لديّ شعور بالوطن. لم يكن لديّ إحساس بالعودة. لم يكن هناك نبض للذاكرة، أو كما كان يمكن لغيرترود ستاين (Gertrude Stein) أن تقول: "لم يكن هناك هناك"!

وفي رحلتي الثالثة هذه، قررت أنني بحاجة إلى تغيير، على الأقل فيما يتعلق بمكان الإقامة. وكان اسم فندق ألكازار قد ذُكر لي على أنه فندق أسعاره رخيصة، وينزل فيه الحجاج الفقراء نسبياً. وعندها، كانت قدرتي على تحمل سماع التكرارات الدينية قد أصبحت أقوى من قدرتي على سماع الكلام عن الخصخصة وتحرير الاقتصاد وفعالية الأسواق. وهكذا انتقلت إلى ألكازار.

في صبيحة يومي الأول هناك وقع هجوم انتحاري على الباص رقم ١٨ في المدينة، فطبقت الحكومة الإسرائيلية الإغلاق الشامل على الفور. وهكذا وجدت نفسي لوحدي في مركز الأبحاث (ماس) الذي أعمل فيه، باستثناء سكرتيرة كانت تقطن في مكان قريب جداً. أمضيت النهار وحيداً؛ اشتغلت قليلاً على دراستي، وأجريت بضع مكالمات هاتفية، بينما كنت أراقب الجنود الإسرائيليين في الشارع من خلال النافذة. وأعاد هذا إليّ ذكريات طفولتي في صفد عندما كنت أراقب الجنود البريطانيين المارين في مصفحاتهم خلال ساعات منع التجول. في المساء قررت العودة إلى الفندق مشياً على الأقدام، فأرشدتني السكرتيرة إلى الطريق. اتبعت تلك الإرشادات، لكن السكرتيرة كانت من الخليل، وقد قدمت إلى القدس قبل أسبوعين فقط، ومعلوماتها عن المدينة كانت بدائية. فضللت الطريق، ورحت أتجول على غير هدى. ولأول مرة منذ بدأت زياراتي لفلسطين، اختفى الشعور لديّ بأنني في بلد غريب. لم أسأل أحداً أن يدلني على الطريق إلى الفندق، وواصلت المشي متمهلاً وسعيداً بشعور الألفة الجديد. وحل الظلام، مكثفاً شعوري بالرضا وبالرغبة في اكتشاف معالم جديدة. ودخلت منطقة مزدحمة بالورشات والمساكن الصناعية الفقيرة، ثم سمعت ضجة آتية من مكان قريب

فوجدتني مدفوعاً، من دون تفكير، إلى مصـــدرها. بعد لحظة، رأيت عدداً من اليافعين يركض ويختبئ في الظلام، بينما كانت سيارة إسرائيلية مصفحة تمضي مسرعة في الاتجاه المعاكس. وبعد دقائق، رأيت ما خلفه الشباب على الجُدر قبل اختفائهم: وجوهاً مطبوعة لغســـان كنفاني على جُدر دكاكين وبيوت الفقراء. وللحظة.. لحظة مجيدة.. "لحظة خاطفة ومشعة".. شعرت بأنني في الوطن. ■

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
http://www.palestine-studies.org/ar/mdf